بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

شعرت أثناء عملي في المجلدات المتقدمة أن الفرنسيين ساهموا فيما يعرف باسم الحملتين الأولى والثانية المساهمة الأوربية الأساسية، لكن منذ مقدمات حطين شهدت الساحات الأوربية تبدلات سياسية هامة،كان أبرزها بالنسبة لموضوعنا تعاظم دور انكلترا، واتساع رقعة مملكتها، فقد بات ملوك انكلترا سادة فعليين على جميع أجزاء بريطانيا بما في ذلك إيرلندا، وامتلكواأجزاء واسعة من القارة الأوربية ،أو بالتحديد من فرنسا، جعلت حدودهم مجاورة لحدود اسبانيا، التي تحالفوا معها عن طريق الزواج الدبلوماسي وتبادل المصالح.

لذلك كان علي البحث عن مزيد من المصادر لتغطية هذا، ولزيادة المعلومات عما يعرف باسم الحملة الثالثة ، حيث أنه باخفاقها، انتهى عصر صلاح الدين، وتمزق المشرق الاسلامي من جديد، وبالوقت نفسه عانت أوربا من الصراعات، لاسيما بين فرنسا وانكلترا، وهكذا عجزت أوربا عن توجيه حملة عملاقة جديدة نحو المشرق ، وكنا قد رأينا من قبل أخبار ومصير الحملة الرابعة، وسنرى ان شاء الله في مجلدات مقبلة أخبار ومصير الحملات الخامسة والسادسة والسابعة، التي كانت صغيرة نسبياً .

وقمت منذ عام ١٩٩٦ بعدة رحلات علمية أوصلتني الى أهم المكتبات من مكتبة الكونغرس والمكتبة البريطانية، ومكتبات القاهرة والى

غيرها كثير، وهكذا وفقت والحمد لله فحصلت على ماكنت بحاجة إليه وعلى أشياء جديدة، كان منها المجلد الذي أكتب له هذه التوطئة ،فهو قد نشر للمرة الأولى في لندن عام ١٩٩٥ ،وهو يحتوي زبدة تواريخ أسرة بلانتغت التي انحدر منها: فولك ملك القدس ، ووالد بلدوين الثالث وعموري الأول، ومنها جاء هنري الثاني ملك انكلترا ومن بعده ابنه رتشارد قلب الأسد.

وفي هذا المجلد من المواد مالانجده في غيره من المصادر، فمن خلاله نحصل على صورة مفصلة عن أوضاع كل من انكلترا وفرنسا قبل نشوب أحداث الحملة الثالثة وبعد ذلك، ونتعرف على العلاقات بين الأسر الحاكمة والاقطاعية ، وفوق هذا نشهد الفوارق بين المستوى الحضاري لعرب المشرق وبين مستويات أوربا، ونميز بين عقليات رجال الدين والكنيسة وايمانهم بالغيبيات، وعقليات رجال السلطة، وكيف تضاربت دوما المصالح بين الكنيسة والدولة، وكيف توفر الاجماع حين تعلق الأمر بالصليبيات، لابل كانت الصليبيات هي المخرج للأزمات الحادة .

وفي هذا المجلد مجموعة من الوثائق غير متوفرة في مصدر آخر، هذا وإذا ماجمعت مواد هذا المصدر مع مواد ذيل تاريخ وليم الصوري ، ومع المجلدين المقبلين، يمتلك حينها المؤرخ العربي والقاريء المهتم من المواد ماليس أغنى ولا أهم، فهنا نشهد عظمة صلاح الدين ورجال عصره من خلال ماقاله الأعداء ، ذلك أن ماذكره الأصدقاء لايكفي ، فابن شداد حين أرخ لحياة صلاح الدين كان شيخاً لم تسعفه ذاكرته بذكر التفاصيل، فضلاً عن أن منهجه ومقاصده وقتها لم تكن مع التفاصيل ، وأغرق العماد الكاتب كل مايحتاجه المؤرخ بالصنعة ، ثم إن المؤرخ العربي لم يهتم بكل مايهتم به المؤرخ المعاصر.

بوساطة المصادر الغربية تكتمل الصورة ، وتصبح أكثروضوحاً ونقاء، صورة عصر جاء تتويجاً لما تقدمه من عصور ، وصورة بطل وحدودي

مجاهد لانظير لـه،يحاول بعض المرضى في أيامنـا النيل منها، ونتلقـن منها درسـاً خطيراً، أن اسرائيل قادرة الآن على العيـش في الوسط العـربي لأنها الكتلة السيـاسية الـوحيدة الموحـدة داخل طوق عسكري وأمنـي مرعب، وأن المشرق العربي إذا لم يـوحد هـو مهدد بالـزوال، عن طريق الـدمار أو الاحتواء أو الشرق أوسطية ،أوالعولمة، أوغير ذلك.

في الماضي رأى صلاح الـدين هذه الصورة ، فنجح في تحقيق الـوحدة، فحقق النصر في حطين وحـرر القدس ، وصمـد في ملحمـة عكا، وطبعـاً كان أسـاس الوحدة لديـه وحدة الشام ومصر، ولابـد اليوم من العمل في سبيل إعادة الوحدة بين هذين البلدين لينضم بقية العرب إليها، فالأمن، والبقـاء والكرامـة والتراث مـوجود في الـوحـدة ، والوحـدة هي عمل في سبيل العـروبـة والاسـلام، وفي سبيل الانسـانيـة ، وفي سبيل النجـاة من الاستعبـاد ومن الأتـوقـراطيـة الأمـريكيـة، وكلي أمل أن يتحـول التنسيق والتعاون بين دمشق والقـاهرة الى مشروع وحـدوي، والله المستعـان، ومنه جل وعـلا يأتي التوفيق، والصـلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى آلـه وصحبه ومن تمسك بهداه الى يوم الدين.

دمشق: ٩ شوال١٤١٨/ ٦ شباط ١٩٩٨

سهيل زكار

مدخل

يعود فضل ارساء قواعد أسرة بلانتغنت إلى سلسلة غامضة من شحن القلاع في وادي اللوار، الذين ارتقوا في القرن العاشر ليصبحوا كونتات أنجو، ولقد كانوا ذوي مزاج ناري، وأقوياء في القتال، يسرعون للانتقام مما لحقهم من أخطاء، غير أنهم كانوا كرماء نحو الكنيسة، وبهذه الصفات كان هؤلاء الرجال ذوي تأثير رفيع في شغل أدوارهم في النشاطات السياسية المعقدة، وبالتدريج تمكنوا من بناء قاعدة سلطوية قوية من خلال مزيج من النشاط الحربي، والدبلوماسي، والزيجاب السياسية الجيدة والتحالفات، ففي سنة ١١٢٨ غدا الكونت فولك الخامس، الذي كان محترماً وناجحاً، ملكاً للقدس، وكان حكم أنجو قد تركه لابنه غيوفري الأشقر (١١٢٨-١١٥١)، وتمكن غيوفري من الاستيلاء على نورماندي، وادعى الحق بعرش انكلترا من خلال زوجته الامبراطورة ماتيلدا، وكانت هذه نقطة حاسمة في أهميتها بالنسبة لسعد الأسرة في أوروبا الغربية، وكان موائماً أن يحمل أبناء غيوفري لقبه «بلانتغنت» كاسم لأسرتهم، وصدر هذا الاسم من ارتدائه قبعة زينت بقشة مكنسة (غنت Genet) وسار ابنه هنري الثاني على خطا الأنجيفيين التقليدية بالتحرك السياسي، فتزوج زواجاً رائعاً، وكان مهاجماً كبيراً وفعالاً، ولذلك أقام مملكة واسعة، وحافظ على ممتلكاته التي امتدت من الحدود الاسكوتلندية إلى جبال البرانس، وحوت هذه المملكة أكثر من نصف فرنسا، وخلفه بعد موته اثنان من أولاده: أولهما رتشارد الأول (١١٨٩-١١٩٩)، وكان قائداً عسكرياً جذاباً وفعالاً وصليبياً، وثانيهما جون (١١٩٩-١٢١٦) الذي فقد معظم ممتلكاته الفرنسية، بما في ذلك مسقط رأس أجداد الأسرة في أنجو، فقدها لصالح فيليب الثاني ملك

فرنسا، وكاد أن يخسر تاجه لصالح لويس بن فيليب، وكان سلوك جون سيئاً نحو باروناته، وكان قاسياً ومتقلباً تجاههم، فنجم عن هذا صدور مرسوم بالاصلاحات (ماغناكارتا) له ذكر دائم، ولم يتعلق الأمر بالحد من سوء تصرف الملوك وارغامهم على الاصلاح فحسب، بل أرسى القاعدة لحقوقنا العامة وحرياتنا.

وإلى القرن الثالث عشر، كانت المقدرة على القراءة والكتابة تقريباً حصراً بالناس العاملين في الأديرة والكنائس، من الكهنة العاديين، إلى العلماء ورؤساء الأساقفة الكبار ورعاة الديرة، واحتاج الملوك والنبلاء إلى كتّاب يديرون لهم حكوماتهم ويتدبرون شؤون محاكمهم القانونية، ويجمعون لهم الضرائب، ويحافظون على سجلات أموالهم، ويتولون صياغة وكتابة مراسيمهم التي حوت أوامرهم المتوجب تنفيذها، وصحيح أن الناس تحادثوا فيما بينهم وكتبوا الشعر والأغاني بلغاتهم المحلية، لقد كانت لغة الكنيسة والحكومة خلال العصور الوسطى في أوروبا هي اللاتينية، وشكلت هذه اللغة جسراً فيما بين رجال الدين مهما كانت أصولهم والبلدان التي جاءوا منها، لكنها بالوقت نفسه عزلتهم عن بقية المجتمع، حتى أثناء شغلهم لواجباتهم الأساسية في الوساطة لدى الرب من أجل السلامة الروحية لبني البشر.

وجاءت غالبية المؤرخين في العصور الوسطى من الديرة أو من الكاتدرائيات الكنسية، وهي أماكن كانت في يوم من الأيام البيوت الراسخة للصلوات، وكانت بالعادة مؤسسات حسنة التنظيم، وعظيمة الفخار بتقاليدها الخاصة، وبالطبع مسؤولة عن سلامة ممتلكاتها والحفاظ على استقلالها، ولم ينشد المؤرخون إنتاج كتابات تاريخية عقلانية التحليل والصياغة مثلما يفعل مؤرخو هذه الأيام، بل استهدفوا أن يظهروا ماقضاه الرب فجاء على شكل أحداث، مبتدئين بأخبار الخليقة صعوداً مع الأحداث حتى أيامهم، وكان من الممكن للمؤرخ تنفيذ ذلك بالتأريخ

لبلده، وكـذلك بالحديث عن انتصـارات وآلام ديره، أو عن حيـاة قديس أو حاكم من الحكام.

وصحيح أن المؤرخين خضعـوا لتصـاريف أحـداث أيـامهم، غير أنهم كتبـوا لأسباب متنـوعة، فبعضهم كتب لتمجيـد ملك من الملوك، أو ديـر من الديرة، أو قديس من القديسيين، وكتب آخرون للتوجيه الذرائعي، أو للشرح أو للتسليـة، لكنهم جميعـاً أظهـروا بـوضـوح الـدروس الـدينيـة والأخلاقية بشكـل مـا، وتطلعوا جميعاً نحو المستقبل، وتعـايشوا مع الآمال الكبيرة في أن الأجيـال المقبلـة، ستعتمد على تـواريخهم وتنقل عنهـا بكل حريـة، ولقد حـدث هذا بالفعـل في كثير من الحالات، فعلى سبيل المثال كـان كتاب «تـاريخ الانكليز» لهنـري أوف هنتنغـدون ناجحـاً جداً، وقـد جـرى نسخـه مـراراً كثيرة في القـرن الثـاني عشر، وتنقل بين أمـاكن كثيرة ووصل حتى دير لى بك Bec النورمـاندي، ورئاسـة كاتـدرائية درم، وظل المصـدر الأسـاسي لعصره حتى القرن السـابع عشر، ووصلتنـا بعض كتبـه الأخرى من خـلال نسخة واحـدة أو نسختين قديمتين، ومن بينهـا «حياة القـديس هيوج»، ونادراً مـانسخ هذا الكتاب في انكلترا الـوسيطة، غير أنه بات واسع الانتشار في القارة منذ القرن الخامس عشر فصاعداً.

وسلف أن طبع كتاب هنتنغـدون في التاريخ، وكذلك كتابـه عن حياة القـــديس هيـــوج، وكـــان ذلك في القـــرن التـــاسع عشر في انكلترا وبالانكليزيـة، ولم يطبع الكتاب الأول ثانية منـذ القرن التاسع عشر، غير أن النصـوص الأخرى في هـذا الكتاب قـد ترجمت للمـرة الأولى، وبسبب المسـاحة، لم تتم طبـاعة نصـوص الكتب كـاملة، بل جـرى اختيار نقـول تـولت وصف الـوقـائع الـرئيسيـة في كلّ سنـة من السنـوات المتتـابعـة، وايضـاح مقاصـد الكتّاب واهتمامـاتهم الخاصة، وجـرى بالنسبـة لبعض النقـول الطويلـة، والنصوص (وأحيـاناً الجمل والمقـاطع) حذف متعمـد بغية تجنب التكرار، أو لايضاح أسلوب الأصل.

واستفدنا فائدة كاملة من بعض اهتمامات مؤرخينا بالصدق والصحة، فكتاب ديسيتو «صورة التاريخ» قد كتب بشكل واضح ومحكم في داخل اطار موثق ومرتب، وهناك على كلّ حال بعض المصادر الأخرى ـ مثل تواريخ كونتات أنجو ـ زاخرة بأساطير لافائدة منها، وهي تتحدث عن حكايات درامية، وأعمال فروسية، أكثر من اعطائنا رواية تاريخية واضحة للأحداث، وحدث بالحقيقة في بعض المناسبات أن قام الكتّاب باختراع حوادث لم تقع قط، وهي تتعارض مع روايات أخرى أكثر اعتماداً وموثوقية، حتى الروايات التي هي بادية أكثر صحة من حيث المنطلق، قد لاتتفق دوماً مع بعضها بعضاً، وتظل أقل قبولاً بالنسبة للتفسير الحديث للوقائع، أو في إعطاء تعريف وتحديد للأماكن والأسماء هو نفسه، لذا زودنا عملنا بحواشي كثيرة تساعد على ضبط وإيضاح النص المحقق (وطبعت بعض الشروح بأحرف سوداء مائلة قليلاً وبوساطة عبارات وردت بين حاصرتين مربعتين في ثنايا النص)، وفيما عدا تزويدنا للنص أحياناً بتواريخ وكنى وألقاب لتمييز بعض المشاركين الرئيسيين، تركنا المؤرخين يتولون بأنفسهم حكاية رواياتهم.

المؤرخون

انطلق في أوائل القرن الثالث عشر كلّ من جيرفاس Gervase الذي كان راهباً ثم غدا المحافظ على الآثار المقدسة في رئاسة كهنة كاتدرائية كانتربري، ورالف راعي دير كوغشال Coggeshall لكتابة تاريخ للشعب الانكليزي وللملوكه، وتولى كلّ واحد منهما شرح هذا التاريخ بقدر ماهو مرتبط بتاريخ كنيسته، وزودانا بالصدفة بكثير من الحكايات المسلية والمواد المفيدة حول السياسات الانكليزية المتعلقة

بالسنوات: ١٢٠١ حتى ١٢١٠، حيث هي قليلة جداً في مصادر الأخبار الأخرى، وهناك حوليات بارنول Barnwell التي كتبها راهب أو كاهن مجهول، وهي هامة جداً وفيها شواهد ثمينة عن السنوات الأخيرة لحكم جون (١٢١٠-١٢١٦)، وتظهر بالمقارنة القليل من الميول الاقليمية (جرى حفظ النص في دير بارنول لكنه ربما لم يكتب هناك)، وتقدم هذه الحوليات مقاربة متوازنة لمسألة الصراع فيما بين الملك جون وباروناته، وقد عبّر عن شيء من التعاطف مع الثوار وكذلك مع جون، الذي هو شخصية مؤذية جداً لدى المؤرخين المتأخرين.

وأنتجت بعض الديرة تواريخ رسمية لحماتها من الملوك أو النبلاء، فعلى سبيل المثال قام الراهب جون فيما بين ١١٦٤ و١١٧٣، في دير مارموتيير Marmoutier في وادي اللوار بكتابة نص جديد من كتاب «أعمال كونتات أنجو»، وكان أصل هذا الكتاب المثير والدرامي قد صنف وجمع في الدير في بلاط الكونتات أثناء القرن المنصرم من قبل عدد من المؤرخين، بما في ذلك الراعي أودو، وتوماس أوف لوشي Louches الذي كان شماساً للكونت فولك الخامس، وكثير من محتوياته، لاسيما المواد المتعلقة بالأنجيفيين الأوائل، لاتتعدى الأسطورة سوى قليلاً، وهي على كلّ حال كتبت وأهديت إلى هنري الثاني نفسه، وقد كان أعظم ملوك أسرته، فضلاً عن كونه أيضاً ملكاً لانكلترا ودوقاً لنورماندي وأكوتين، وبعدما كمل جاء الراهب جون فسار بالحكاية وذيل عليها وصفاً ملوناً وعظيم الإطراء جاء بمثابة ترجمة لغيوفري الجميل، والد هنري الثاني.

وتتعارض حكايات الراهب جون أوف مارموتيير المتدفقة بالحياة والتي هي بالغالب غير شرعية مع مقاربات عدد كبير من مؤرخي الانكليز للقرن الثاني عشر التي هي أكثر توازناً، فقد قدم هنري رئيس شمامسة هنتنغدون Huntingdon في كتابه «تاريخ الانكليز» رواية شبه

معاصرة عن حكم ستيفن،وكانت هذه الرواية في يوم من الأيام مقروءة ومليئة بالدروس الأخلاقية، وتحتوي على مواد واقعية، لئن كانت قد اختيرت بعناية فهي قد عرضت بشكل دقيق، وحظي هذا الكتاب في البداية على موافقة روجر أسقف سالسبري، الذي كان شخصية دينية قيادية وعاملاً في الادارة الملكية، ثم أعاد المؤلف كتابته وغير توزيع مواده بحكم ازدياد شعبيته، وأعظم تدقيقاً من هذا الكتاب في صياغته كتاب «صورة التاريخ» لرالف أوف ديسيتو، وهو كاهن وموثق وفيما بعد عميد كاتدرائية القديس بولص في لندن، وقد ظل يكتب حتى سنة ١٢٠١، وهي كما يظن سنة وفاته، وكان ديسيتو مثله مثل معاصره روجر هاودن Howden (الذي من المؤكد أنه كتب تاريخاً، ولربما كتب أيضاً كتاب «أعمال الملك هنري الثاني والملك رتشارد الأول») قد انطلق لاخراج كتاب في التاريخ صحيح، وبما أنه ركز بشكل خاص على الكنيسة الانكليزية نهل بشكل كبير من الوثائق الملكية ورسائل أيامه التي حكت الرواية التي أراد الانتفاع منها، وقد حلل الأحداث، مستخدماً اشارات هامشية لإظهار مواضيع مختلفة مثل الصراعات بين الكنيسة والدولة، والشجار بين هنري الثاني وأولاده، وهي وقائع شهدها وهي تقع. ولابد لكل كاتب ينشد تقديم رواية ايجابية عن أيامه من أن يواجه مشاكل مثل: اعجاب ديسيتو بهنري الثاني، واطرائه لاستشهاد توماس بكت، وهو حادث كان الملك مسؤولاً عنه بشكل غير مباشر، غير أن هذا العائق قد أنتج نتائج ثمينة، لأن روايته عن الشجار بين الملك ورئيس الأساقفة تحتوي على شعور رائع عن الفصل بينهما.

وقدم وليم فتزستيفن، الذي كان كاهناً عمل من قبل في حاشية بكت، في كتابه «حياة القديس توماس بكت»، الذي صنفه في سبعينات القرن الثاني عشر، بعد أمد وجيز من وقوع حادث الاستشهاد، رواية حية ودرامية عن حياة رئيس الأساقفة وعن موته، وهي رواية مليئة

بالملاحظات الاجتماعية، كما وتحتوي على وصف هام لمدينة لندن، مسقط رأس بكت، وكان القصد الخاص من هذه الرواية هو تمجيد صاحب موضوعها ورفع شأنه، ومثل هذا فعل آدم أوف آينشام Eynsham في كتابه «حياة القديس هيوج أوف لنكولن»، الذي كان واحداً من أعظم شخصيات الكنيسة الانكليزية في القرن الثاني عشر، وكان هيوج مثله مثل بكت، قد اختلف مع هنري الثاني ومع أولاده حول الامتيازات اللاهوتية، غير أنه كان قادراً على استرداد الرضى الملكي بوساطة روح الدعابة الجريئة لديه، وهي سمة افتقدها —كما يبدو— بكت.

وكان كلّ واحد من المؤلفين حريص على عدم توجيه النقد للملك كثيراً، وذلك على النقيض من جيرالد أوف ويلز في سنواته الأخيرة، وكان جيرالد رئيس شمامسة بريكون Brecon خصب الإنتاج وكاتباً شعبياً حول موضوعات مثل عادات وسمات الويلزيين والايرلنديين، لكنه كان متألماً لاخفاقه الطويل في أن يصبح أسقف القديس داود، ودبج هجاء قاسياً وعدوانياً ضد القدر الذي قهر الحاكم المذنب، مع اشارة خاصة إلى هنري الثاني.

وبالاضافة للشروح والحواشي هناك تفاصيل كاملة حول المخطوطات التي اعتمدت مع أسماء المؤلفين في نهاية الكتاب.